نظرة حكيم مجرّب في

الحالة الاوربية

منخّص مقال للجنرال سمطس

الجنرال سمطس أحد زعماء اتحاد افريقية الجنوبية ، معروف في دوائر العلم والسياسة على السواء . فقد ترأس مجمع تقدم العلوم البريطاني من ثلاث سنوات وله كتب فلسفية ويحسب من أعلام فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة الكلية Holism. أما في السياسة الدولية ، فقد كان من كبار أقطاب الحلفاء في الحرب الكبرى وعضواً في الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح وقد اشترك في وضع دستور جمعية الامم وله مكانة عظيمة بين دعاتها

اذا قلّبنا النظر في الحالة الاوربية اليوم تبيّنا طائفتين من القوى تتنازعان في الخفاء لتوجيه الخطط السياسية الدولية . فالطائفة الواحدة تنبع من الشعور بالخوف والاخرى من الشعور بالذلّ والحرمان. وكلا الشعورين أعراض مرض لا دلائل نموّ سليم . فاذا لم يعالج بالحكمة أفضيا الى نتائج خطيرة في حياة العالم العامة

وقد يكون هذا الاعتراف منا اعترافاً بالخذلان ، ولكن يبدو لي أن الشعور بالخوف والجزع هو المحرّك الاساسي في صلات الدول الاوربية بعضها ببعض . الخوف ؛ أخسّ البواعث الانسانية على الاطلاق يسود الحضارة الاوربية الآن . فالدول التي أحرزت النصر في الحرب الكبرى ، أبعد ما يكون عن الشعور بالطمأنينة التي تصحب النصر، يثيرها ويقلقها خوف عصبيّ على مستقبلها . أما الدول التي خذلت في الحرب الكبرى فغير راضية عن التسليم بالحرمان الذي كان نصيبها وترفض قبول مكاناً غير الصدر في مجامع الامم المتحضرة . فالدول المنتصرة يحركها الخوف من الدول المخذولة . والدول المخذولة عازمة العزم كلهُ على استرداد مساواتها بالدول المنتصرة . فالحالة الذهنية والنفسية الناشئة عن هذين الباعثين، جعلت ميدان العلاقات الدولية الاوربية مضطرباً كل الاضطراب ، وهي تسير بأوربا على طريق الفوضى. لذلك نرى العقل مكبوتاً والمشاعر الانسانية العالية مشلولة ، والسيادة الآن للدوافع التي تحول دون الارتقاء المنتظم القائم على التفاهم والتعاون . ولذلك نرى كل مسألة من المسائل الخطيرة مستعصية على الحلّ في هذا الجوّ المضطرب . فالسعي الى نزع السلاح أو خفضه قد أخفق أو كاد ، حالة أن كل عاقل في الدول المختلفة يرى أن لا مندحة عنهُ . والتعاون الدولي مهدّد بالخطر مع أن كل مصلحة من المصالح الدولية الاوربية وغير الاوربية تقتضيه

فاذا شاءت اوربا ان تعود الى الطريق القويم ، وجب على أممها ، غالبة ومغلوبة ، ان تتلاقى من

هذه المُعتقد الفرويدية، أن تستعيد سلامة النظر وصحة الحكم، أن تنظر الى علاقاتها بعضها ببعض نظراً سليماً غير مشوه ولا مضطرب . وليس ثمة علاج بالتحليل النفسي يستطيع أن يعالجها كما يعالج علماء التحليل النفسي ما يصاب به بعض الناس من العقد النفسية . ولعل السبيل الأقوم الى ذلك هو أن تعترف دول اوربا جميعاً بأنها اتّسمت في أفعالها حتى الآن طريق الحق لا طريق العقل

من مظاهر الشعور بالخوف هـذا الحديث المستفيض في الصحف والدوائر عن الحرب . يقال أننا على عتبة حرب جديدة ، وان الحرب قاب قوسين منا أو أدنى . هذا التحدث بالحرب يخلق جو الحرب ، وقد يكون أقوى البواعث على نشوبها . وهو عندي خطأ كبير وشر عظيم . والغريب في كل هذا أن دعاة السلام ، هم أعلى الناس صوتاً في هذا الحديث . انهم يرغبون في تصوير ويلات الحرب للسواد من الناس لتنفيرهم منها ، فتحملهم رغبتهم هذه على خلق الذهنية التي تفضي الى الحرب . ثم هناك صناع الأسلحة وهؤلاء يعرفون انهم يجنون ربحاً عظيماً من التحدث بالحرب وقرب وقوعها ووجوب الاستعداد لها . لذلك أناشد رجال السياسة ورجال القلم ، أن يضعوا حداً حاسماً لهذه الدعاية الخطيرة

ان توقع الحرب في الغد أو في المستقبل القريب ، ضرب من السخف . وهذه حقيقة يعرفها كل مطلع على بواطن الامور . فالاحوال اليوم غير ما كانت عليه سنة ١٩١٤ اذ كانت الحرب في المستقبل القريب خطة مرسومة حينئذٍ ، وكانت الدول تستعد لها على أنها واقعة لا محالة . بل أن أركان الحرب في كل منها ، كانوا قد وضعوا الخطط وعينوا المواعيد ليومها المشهود . أما اليوم فقلما نجد أمة ترغب في الحرب . وكل رجل من رجال السياسة يدرك أن في الحرب دمار أمته وخاتمة لحياته العامة اذا كان هو من مثيريها . ولعلنا لا نجد بين الامم الا أمة واحدة مستعدة لها الاستعداد كله . ومع ذلك فالسواد في هذه الامة يطلب السلام . ولا ريب عند أصحاب الرأي في ان نشوب الحرب يكون في الغالب ايذاناً بانطلاق ثورات داخلية على الحكام

ولكن الشؤون العسكرية أقل شغلاً لافكار الساسة من الشؤون الاقتصادية . ان بعض الكتّاب لا ينفي عن تذكيرنا بما هو واقع على ضفة الرين الشرقية ، من تسلح خفي ، وتمرين عسكري . وقد يكون كل هذا صحيحاً ، والغالب ان جانباً كبيراً منهُ صحيح ، ولكنهُ ليس في الراجح إلا أثراً من آثار ذلك الشعور بالحرمان . ليس هذا نزعة عسكرية صحيحة . إن هو إلا نوع من التخدير العسكري . فهذه الافعال ، التي تنطوي على صنع السلاح ، والتمرين العسكري ، تنشيء شعوراً بالرضا والطمأنينة في أذهان قوم يحسون أنهم أذلوا وحرموا وعوملوا معاملة المسود . ان روح الحرب ، تختلف عن هذا كل الاختلاف . وقد تستيقظ روح الحرب ثانية ، اذا تركت الامور تسير في أعنتها ، ولكنها الآن مدفونة تحت ركام الحرب الكبرى . أنا لا أصدق أن الالماني الآن يبغي الحرب حقيقة ، وانهُ فعلا يستعد لها ، إلا اذا كان صوابهُ قد طار . فلنضع حداً حاسماً لهذا الحديث . ولست أعني بما أقول

ان الحالة لا تنطوي على مخاطر تقلق النفوس، ولكنها على كل حال لا تسوّغ التحدث بالحرب، ومنع التحدُّث بالحرب سبيل الى معالجتها

والعلاج لهذين الشعورين ليس إلاَّ الطريقة الفرويدية نفسها، أي إستخراج المقلق من الاعماق، وتعريضها لنور النهار. وهـذه هي طريقة جمعية الأمم. قد لا تكون الجمعية وسيلة لضمان السلامة، وقد ينقصها عنصر القوة لتأييد ما تتخذه من الاحكام، ولكنها على كل حال منبر للمناقشة بين الامم « ومائدة مستديرة » يجلس حولها رجال السياسة، فينفسون عما في صدورهم بابداء آرائهم والدفاع عنها. والواقع أن جمعية الأمم انشئت لتكون أولاً وآخراً « مائدة مستديرة » للأمم، تصلح لمعالجة شعور الخوف وشفائه بالاساليب العلمية والانسانية معاً

ولكن هناك من يقول ان هذا وحده لا يكفي، وانهُ ما ظلّت جمعية الامم، مكاناً للمناقشة والمناظرة، غير مؤيدة بضمانات القوة لتنفيذ احكامها، يظل الشعور بالخوف سائداً، مسيطراً على العلاقات الدولية. بل يقال ان عجز جمعية الامم عن تعزيز النظام المشترك بالقوة اذا اقتضى الامر ذلك، قد اضعف من هيبتها وسار بها على طريق الانحلال. ويشيرون الى حادثة اليابان ومنشوكو التي كشفت عن ضعف الجمعية واقامت الدليل على أن الجمعية مقضيٌّ عليها اذا هي لم تعزَّز بقوة مسلحة لتحقيق خططها وفرض احكامها فرضاً

ان جوابي على هذه الاعتراضات جواب مزدوج. ففي المقام الاول لا استطيع ان اتصوَّر جمعية الامم وهي شاكية السلاح. ان فكرتها الاولى لم تقم على مبدإ القوة، ودستورها لم يوضع لهذا الغرض. فاذا حوِّلت، الى قوة مسلّحة، الى نظام غرضهُ خوض الحرب لمنع الحرب، قضي عليها قضاءً مبرماً. ذلك إني لا استطيع ان اتصوَّر بلدان « الدومنيون » — في الامبراطورية البريطانية — باقية اعضاء فيها متعهدة ان تخوض غمار الحروب الاوربية مثلاً. فاذا خرجت منها بلدان « الدومنيون » لم يطل المطال على انكلترا حتى تقتفي اثرها. ولست اعرف ايَّ عمل آخر، يكفي لصدِّ الولايات المتحدة الاميركية عن الانتظام فيها صدًّا نهائيًّا مثل تحويلها الى اداة عسكرية من شأنها ان تنفذ احكامها بالسلاح. ويجب ان تذكروا ان الجمعية لا يتمُّ تأليفها قبل ان تنتظم فيها الولايات المتحدة الاميركية. فقد انشئت الجمعية على زعم ان الولايات المتحدة الاميركية عضو فيها، فانسحاب اميركا من عضويتها فوَّت على الجمعية حتى الآن معظم اغراضها. ولكن ضمَّ الولايات المتحدة اليها يجب ان يبقى هدفاً يسعى اليه، اصدقاء الجمعية ودعاة السلام. ولا ريب عندي في انهُ لا بدَّ من مجيء وقت تنتظم الولايات المتحدة الاميركية فيها او في جمعية هي اشبهُ ما يكون بمؤتمر دوليّ. ولكنها لن تنتظم في وزارة حربية دولية. وانني لواثق أن تحويل الجمعية، الى عصبة مسلحة، منافٍ لغرضها الاساسي. بل ان حلَّ المشكلات الناشئة عن شعور الخوف والجزع، لا يلتمس من هذه الطريق

وفي المقام الثاني، احبُّ ان أقول، ان التجاريب، قد علمتنا منذ انشئت الجمعية، كيف الخروج من

المأزق . فمعاهدة لوكارنو، قد أُدمجت في النظام المشترك تحت اشراف الجمعية . ومعاهدة لوكارنو هذه ابتدعت في السياسة الاوربية مبدأ الضمانات الخاصة في منطقة محدودة من الارض تشترك فيها دول معينة غرضها الدفاع المتبادل عن سلامتها تحت اشراف الجمعية وسيطرتها . فهذا الاتفاق لا يحتم على جميع أعضاء الجمعية من دون تفريق بينهم ، استعمال السلاح في حالة خاصة معينة ؛ بل هي تربط بين الدول التي لها مصلحة في ذلك وترغب في الانضمام والتعاون على هذا الاساس . والميثاق الشرقي المقترح ، المعروف باسم « لوكارنو شرق اوربا » اتفاق آخر من هذا القبيل ، وكذلك ميثاق أوربا الوسطى الذي وضعت قواعده في روما عند اجتماع لافال بموسوليني في اوائل السنة الجديدة . فاذا كان شعور الخوف في اوربا ، لا يزول الاَّ بضمانات من هذا القبيل ، فلتكن ضمانات محدودة مقتصرة على امم معينة ، تهمها هذه الضمانات ، في منطقة خاصة من سطح القارة الاوربية . ان القوى المسلحة التي تستعمل لتأييد السلامة ، يجب ان تكون قوى قومية تحرك وفقاً لاتفاقات ومواثيق موضوعة ، لا قوى تابعة لجمعية الامم وخاضعة لسيطرتها

اكتفيت حتى الآن بالاشارة الى شعور الخوف وطريقة علاجه . ولكن الشعور الآخر شعور الحرمان متصل به أوثق اتصال . فاذا كان السلام بغيتنا حقيقة لم نجن فائدة ما من معالجة الشعور الواحد دون الآخر . ذلك ان الخوف يستفحل باستفحال الشعور بالحرمان وتلظيه . والشعور بالحرمان يستفحل باستفحال الشعور بالخوف واعتماد اصحابه على زيادة السلاح تذب عن حياضهم وإدخال الطمأنينة على نفوسهم . فالشعور الواحد يغذّي الشعور الآخر ، وكلاهما يفضي الى خطة التسلح بغرض الدفاع عن النفس . فاذا لم يعالج الشعوران معاً ، انتهينا الى حلقة مفرغة آيتها زيادة السلاح . فازالة شعور الحرمان المتغلغل في نفوس الشعب الالماني لازم لتعزيز السلام لزوم ازالة شعور الخوف من نفوس الشعب الفرنسي . وكلاهما لا مندوحة عنهُ لنجاح اية خطة غرضها نزع السلاح أو خفضهُ

فكيف نزيل شعور الحرمان الذي يسم ذهن المانيا ونفسها ؟ ليس لذلك الاَّ سبيل واحدة وهي الاعتراف لها بالمساواة التامة بالدول الاخرى ، وان يكون هذا الاعتراف صريحاً ومن دون تحفظ . وما لم نعمد الى الجرأة والسرعة في اتخاذ هذه الخطوة يظل الجرح الاوربيُّ منطوياً على دغل

ان الباحث يفهم المخاوف التي تقلق صدور فرنسا ، ولكنهُ في الوقت نفسهِ لا يسعهُ الاَّ أن يفهم كذلك ما تحسُّ بهِ المانيا لانها لا تزال في مكان ثانوي بين الامم ، وقد انقضت ست عشرة سنة على انتهاء الحرب . ان بقاءها على الحالة التي نصَّت عليها معاهدة فرساي ، أصبح امتهاناً لضمير اوربا وخطراً على السلام . أن شرعة الانصاف ، بل والحكمة العملية ، تقتضيان تحطيم القيود التي قيدت بها ، فتجني اوربا عند ذلك حصاد الطمأنينة والرخاء . يظن بعض الناس أن النخوة والشهامة لا مكان لها في السياسة الدولية . ولكنني رأيتهما في بلادي ، تبدلان حالة منطوية على اخطار عظيمة ، بصداقة محكمة بين الغالب والمغلوب . هذه طبيعة الانسان . واذا صحَّ أن لا مكان في السياسة الاوربية

للنخوة والشهامة ، فلا ريب أن فيها مكاناً للمصلحة والحكمة . وكلتاهما تقضي بمواجهة الحقيقة قبل أن يفوت الأوان ، فنستأصل شعور الحرمان الذي يوغر الصدور

منحت المانيا مبدأ المساواة في دسمبر سنة ١٩٣٢ ، لما اتفقت الدول الكبرى في مؤتمر نزع السلاح على ذلك . ولو أن المؤتمر خطا الخطوة المسببة نحو تحقيق هذا المبدإ لكانت المانيا اليوم عضواً في جمعية الامم ، لا باعثاً من بواعث الاضطراب والقلق خارجها ، ولقبلت في الغالب الاتفاق على خفض السلاح خفضاً كبيراً على اساس مقترحات الحكومات البريطانية . ولكنها اليوم خارج حظيرة الجمعية ، وموقفها من التسلح المخالف لمعاهدة فرساي ، محوط بالريب منطوٍ على الخطر . هوذا شعور الحرمان يستحيل فينشئ شعور الخوف ، وشعور الخوف يتفاقم فيقوّي شعور الحرمان . والنتيجة نوع من التنافس في التسلح لا يعلم احد مداهُ وعواقبه

قد تكون مبادئ النظام النازي مما لا يسيغهُ رجال السياسة في بعض الدول الاوربية . ولكن ذلك يجب ألاَّ يكون حائلاً دون الاعتراف لألمانيا بالمساواة . فيقضى بذلك على الشعور الذي يعتمد عليه النازي في اثارة كوامن الصدور . وها هي ذي روسيا ، رغماً من شيوعيتها ، قد أصبحت عضواً نافعاً في مجامع الأمم ، ولا ريب عندي في أن الضرورة التي تقتضي عودة المانيا الى مجامع الأمم ، لا تقل عن الضرورة التي اقتضت عودة روسيا اليها

أعلنت ألمانيا في آخر سنة ١٩٣٣ أنها اذا منحت مبدأ المساواة في الحقوق ، رضيت مختارة أن تجعل سلاحها الدفاعي ضمن حدود معينة ، بحيث لا يكون خطراً على جيرتها . وقد اعترف أهل الخبرة ، في هذه البلاد على الاقل (انكلترا) بأن مقترحاتها معقولة وتصلح أن تكون أساساً للبحث . هذا قرار وضع من نحو سنة ولكنهُ لا يزال حبراً على ورق . ان روح الخذلان متفشية في مختلف البلدان والشعوب تهزُّ أكتافها قاطعةً حبل الأمل في النجاح . وهذه روح ليست جديرة بالذين تلقنوا في الحرب الكبرى درس الصبر والثبات ، كأنما تلبد الجوّ بغيم الخيبة ما كان . ولا يزال ثمة مكان لمحاولة حازمة غرضها اعادة المانيا الى جمعية الأمم ومؤتمر نزع السلاح . بيد ان ساسة اوربا يجب أن ينقّوا عقولهم ، من آثار السموم — سموم الخوف والحرمان — ويجب أن يستنهضوا شجاعتهم لاتخاذ الخطوة الحاسمة ، واعلان مساواة المانيا بالدول الأخرى . فانهم اذا لم يفعلوا ذلك بالاتفاق ، تمّ ما يخشونهُ رغماً عنهم . ولكن الفرق بين الحالين ، ان المانيا في حالة الاتفاق لا تكون خطراً يهدد جيرتها ، أما اذا بلغت المساواة من دون اتفاق ، كان عملها تحدياً لنظام المعاهدات ، وتسلُّحها مطلقاً من القيود ، فلا يعلم مداهُ ، فيتمّ حينئذٍ في موضوع التسلُّح ما تمّ في موضوع التعويضات . عند ذلك تكون السياسة قد أفلست ، ويبقى الحكم للحوادث وحدها [1]

(١) وقف الجنرال سمطس بقية مقاله على الشرق الاقصى ، وهو موضوع سوف نفرد له بحثاً مستقلاً في عدد تالٍ